الزكام
ورائحة الخيانة

الزكام ورائحة الخيانة

بمجرد أن وطئت قدماي أرض النادي حتى اندفعت ناحيتي صديقتي "الغلباوية" (فت فت) صائحة :

ـ آه لقد ظهرت أخيراً . . ثلاث سنوات لم أرك فيها ولم أسمع صوتك خلالها . . ثم أين ابنتك هذه الشابة الجميلة التي لم أرك بدونها منذ معرفتي بك؟

لم تنتظر (فت فت) مني أي إجابة عن أسئلتها ولكنها جذبتني من يدي ناحية مجموعة من الأعضاء كانوا في شبه اجتماع لشيء ما . . لم أكن أعرف أحداً منهم، سادة وسيدات (شباب فوق الخمسين)، صاحت صديقتي وكأنها تسمعني قبل أن تسمعهم :

ـ ها هي رفيقتي في الرحلة، لقد طلبتم مني أن آتيكم بمن ستشاركني حجرتي في رحلتكم . . ها هي صديقتي . . شريكتي في الرحلة .

كنت كالتائهة لا أفهم شيئًا مما تقوله، ولكني تنبهت وهي تهمس في أذني : إنهم أعضاء لجنة الرحلات بالنادي .

كان الكل في هذه اللحظة ينظر تجاهي وأنا في ذهول . . انتهزت فت فت تلك الفرصة وأضافت بذات الهمس :

ـ إنها خمسة أيام فقط؟ رحلة إلى طابا بعد أن استرجعناها من إسرائيل . وكانت تعلم ولعي بهذه القضية ـ قضية أرض سيناء الحبيبة حربًا وسلمًا .

ولكني قاطعتها بحزم وهمس :

ـ أخبريني ما الموضوع فأنا في حالة نفسية لا تحتمل مقالبك ودعاباتك .

ابتسمت بثقة :

ـ وهذا ما جعلني أتخذ هذا القرار لحظة لقائي بك فقررت أن ترافقينا رحلة جنوب سيناء التي أعرف كم هي عزيزة عليك .

جاء صوت أحد الأعضاء مستفسراً :

ـ هل السيدة عضو بالنادي؟ فأنا لم ألمحها من قبل . . وعلى ذلك .

قبل أن يكمل جملته قاطعته فت فت :

ـ إنها عضو من زمان . . زمان قوي . . سجل اسمها عندك .

حقًا، أنا عضو منذ أكثر من خمسة عشر عامًا . . ولكن مشاغلي ومشاكلي كانت عائقًا بيني وبين التردد على النادي . . إلا لتجديد العضوية فقط .

جاء صوت يحيى بك الذي علمت فيما بعد أنه المسئول عن تنظيم الرحلة .

ـ بك اكتمل العدد ويسعدنا مرافقتك لنا . قيمة الاشتراك ستدفعينها لأمين الصندوق .

في لحظات . . خطط القدر . . حتى يخرجني من وحدتي بعد زفاف صغرى بناتي . . التي ظلت ترافقني كظلي . . ولكنها الحياة، ورغم

محاولتي لكي تستقر ابنتي وزوجها معي إلا أنها حسمت الموقف قائلة :

ـ كان نفسي أعيش معاك يا أمي أنا وزوجي ولا نتركك لوحدتك، ولكنك تعلمي أن لأبي عليّ حق التزاور. لذلك كان قراري بالاستقلال بحياتي حتى يتسنى لكل منكما زيارتي.. فأنا أعلم أنه رغم مرور كل هذه السنوات على انفصالكما فضلتم ألا تلتقيا قط واحتفظتما لأنفسكما بسر طلاقكما.. وبالتالي فقد احترمنا نحن أولادكما رغبتكما ولم نحاول معرفة سر انفصالكما.

كانت ابنتي محقة فيما قالت.. حقًا لم أكن أحب أن تجمعني بوالدها حتى صدفة لقاء.. فصرنا ننسق زياراتنا لأولادنا دون أن نلتقي.

صاحت فت فت تخرجني من سرحاني القصير :

ـ معاك فلوس تدفعي الاشتراك ولا أدفع لك وبعدين نتحاسب.

نظرت إليها وأنا حائرة في شخصيتها.. عرفتها منذ سنوات قليلة.. كنا أصحاب ولم نكن أصدقاء.. كانت صحبتها تعجبني، إن التقينا فهي مرحة خفيفة الظل.. دائمًا عندها من القصص ما يشد انتباهك ويجذبك لحوارها. ولكننا لم نكن أصدقاء.. فلم تعرف أي منا عن الأخرى إلا القشور.. ولم أتذكر أننا في يوم قد جمعتنا صفة واحدة.. رغم أننا نحن الاثنتين من مواليد برج الحوت إلا أننا كنا نموذجين مختلفتين حتى نثبت أن صفات أي برج لا تنطبق بالضرورة على جميع مواليد هذا البرج. صفة واحدة ربما تجمعنا هي الصراحة التي يرتفع مؤشرها عندها إلى حد

"البجاحة".. شيء ما جعلني أستسلم لدعوتها وأشاركها رحلتها.. كانت الرحلة بمناسبة استرداد مصر قطعة غالية من جسدها بترت في عام الهزيمة ـ وعادت بنصر أكتوبر، واستكملت بحكم القضاء.. سيناء أرض مقدسة، فقد ناجى موسى ربه من خلف جبل الطور.. سيناء جمال الطبيعة، بسحرها مذاق خاص.. أبدعها الخالق.. فعظمة الله رسمت جبالها، وترى قدرته في أعماق بحارها.. تنسى همومك وأنت تستلقى فوق رمالها.. مرت الأيام سريعة ـ خمسة أيام ـ حب واحترام المجموعة بعضهم لبعض جعل الرحلة متعة ـ والأيام الخمسة ـ لحظة من لحظات العمر السعيدة.

وكان اليوم هو الأخير لرحلتنا، عدنا إلى حجراتنا مبكرين حتى نأخذ قسطًا من الراحة والنوم استعدادًا للعودة إلى القاهرة في الصباح الباكر. في حجرتنا أنا و(فت فت) استلقت كل منا على سريرها بعد حمام دافئ.. الهدوء رائع، والليل جميل، والقمر يغنيك عن الإضاءة، طبيعة ساحرة. يا لبئس حياتنا نحن سكان المدن، فالضوضاء أفقدتنا الإحساس بالجمال، فقد أصبنا بكل التلوثات السمعية والبصرية، ورائحة العوادم والأتربة والدخان أفقدتنا آدميتنا وحولتنا إلى ماكينات لا حس فيها ولا جمال، فالقاهرة قهرت بداخلنا كل الحواس.

في لحظة سكون ومتعة بهذا الجو الرومانسي الناعم همت صديقتي أن تتحدث وكنت أعلم أنها كمن ينطبق عليهم قول (سكت دهرًا..) فخفت أن تنطق بما يعكر صفو هذا الجو الجميل، فأشرت لها بيدي أن تسكت وتستمتع بهذا الهدوء.. حتى يأتينا النعاس.

ولكنها فجأة وبدون مقدمات قفزت إلى سريري مستفزة لمشاعري، متحدية لكل جمال الطبيعة، بسؤال عاد بذاكرتي إلى ماض أليم:

ـ كيف تعرف المرأة أن زوجها يخونها؟ ثم أضافت هامسة: أخشى أن يكون زوجي يخونني وأنا لا أعلم.

قلت بلا مبالاة:

ـ إن كنت لا تعلمي فتلك مصيبة.. أما أن تعلمي وتقبلي فالمصيبة أكبر.

قالت لي وأنا أستبدل ملابسي بعد أن فارق النوم جفوني:

ـ إلى أين أنت ذاهبة؟

ـ أجلس على البحر.. فسؤالك أطار النوم من عيني.. فحوارك الآن سيفسد جمال رحلتي..

ثم أضفت حتى أغلق الحوار:

ـ يا عزيزتي.. للمرأة المحبة المخلصة حاسة سادسة تجاه زوجها وقرون استشعار تنبهها وتنذرها وتدق لها أجراس الخطر في لحظة الخيانة.

قالت باستخفاف:

ـ وكيف يكون ذلك؟

ـ ببساطة يا سيدتي الخيانة لها رائحة.. رائحة تشمينها في عرق زوجك.. في أنفاسه إذا اقترب منك ليحضنك بين ذراعيه..

تشمينها في سترته.. في شفتيه حين يقبلك.. في ضحكته.. تشمينها في كل شيء.

كنت قد انتهيت من استبدال ملابسي واتجهت ناحية الباب وقلت وأنا أغلقه:

ـ لا تَزني على خراب عشك بهواجسك.. فالتوقيت غير مناسب بالمرة.. فلم يعد في العمر بقية.

انطلقت على الرمال وأطلقت لنفسي العنان.. خطوة بعد الأخرى أخذتني قدماي بعيداً كما أخذتني ذكرياتي إلى أبعد.. إلى عشر سنوات مضت عندما تحركت عندي الحاسة السادسة وشممت في زوجي رائحة الخيانة.

كنت زوجة محبة لزوجها وبيتها وأولادها، عشت معه أيام شقاء في غربة موحشة بعيداً عن الأهل والديار والأوطان.. كونا ثروة هائلة بمجهودنا المشترك، ولما انتوينا العودة والاستقرار في وطننا الحبيب مصر، اختار زوجي مشروعًا سياحيًا لاستثمار أموالنا.. وكان أن استقر الرأي على منشأة سياحية للمأكولات والمشروبات بوسط المدينة.

في البداية سعدت بالمشروع، ولكن شيئًا فشيئًا بدأ المشروع يأخذ زوجي بعيداً عني وعن أولادنا.. اتسعت دائرة معارفه.. وكان معظمهم من أصحاب النفوذ.. وكان زوجي ينفق عليهم ببذخ مقابل بعض التسهيلات في أمور معينة. أما المضيفات فحدث ولا حرج، فلكل واحدة منهن قصة

غرام معه، تحصل بعدها على مكافأة غير قليلة من خيرات سنين شقاء عمرنا.

كنت يوميًا أنتظر عودة زوجي قرابة الفجر نتبادل بعض الأحاديث، يشكو لي من مشاكل إدارة المنشأة وأقص عليه بإيجاز ما يخصني ويخص أولادنا.. ورغم ما كان يصلني من أخبار غير مريحة عن زوجي فقد كنت أثق به.. ولم لا وهو يؤدي الصلاة في مواقيتها، وحج إلى بيت الله واعتمر.. وهو يعرف واجباته تجاه ربه، فلم الخوف منه أو عليه؟.

كان صاحب مبدأ غريب حين أعاتبه فيقول:

ـ إني أعطي لديني حقه ودنياي حقها..

ربما كان هذا منطق معقول ولكنه غير مقبول.

في تغير ملحوظ ازداد غياب زوجي عن المنزل ـ بل وأحيانًا يتغيب ليلة أو ليلتين بحجة لقائه ببعض أصدقاء الغربة فيجاملهم بالذهاب معهم إلى الإسكندرية أو ما شابه ذلك.. وكنت أصدقه، لأني كنت أحب أن أصدقه.

علمت أن لزوجي راقصة (درجة ثالثة) يقضي ليله معها في الملهى الذي تعمل به وغالبًا ما يرافقها إلى منزلها، ينفق عليها وعلى أصدقاء السوء من مالنا الذي جمعناه بعرقنا وغربتنا.. وليلة بعد الأخرى شعرت أن زوجي يُسلب مني.. لا يعود إلى المنزل إلا قليلاً، وعندما يعود تفوح منه أسوأ رائحة تمكن للمرأة أن تشمها منبعثة من زوجها "رائحة الخيانة".

تجمدت مشاعري نحوه ـ وعافته نفسي ـ أصبح القيئ ملازمًا لي، بعد كل لقاء شرعي معه.. كل شعرة في جسدي نافرة منه.. لمساته أصبحت كالسياط.. شيء ما بداخلي يؤكد خيانته ومعاشرته لأخرى.

واجهته بأحاسيسي.. وما سمعته عن علاقته بتلك الراقصة.. ثار في وجهي منكرًا كل ما قلته مؤكدًا حبه وإخلاصه لي. أنبت نفسي على شكي في إخلاصه ولو للحظة واحدة. ألقيت اللوم على أحاسيسي التي كادت أن تهدم بيتي وتطيح بحياتي.. فها هو زوجي يبكي ويركع ويسجد ويقسم ويجزم ويؤكد أنه بريء من هواجسي.. هل أكذب كل هذا وأصدق حاستي وأحاسيسي؟

مرت الأيام ولا زالت رائحة الخيانة في ثناياه، شعور بداخلي يؤكد خداع زوجي لي.. حتى كان ذلك اليوم الأسود الكئيب.. يوم أن اتصل بي زوجي ليلاً يستأذني في التأخر عدة ساعات لأنه ذاهب لاستقبال صديقين عزيزين عليه سيصلان مطار القاهرة في ساعة متأخرة من الليل. وذكر اسم صديقين أعرفهما منذ كنا بالغربة.

قلت:

ـ ولما لا أتي معك لاستقبالهم؟ فهم أصدقاء عائلة

قال بثقة المحب:

ـ لو كانت زوجاتهن برفقتهن لأخذتك معي لاستقبالهم، فوجودك معي فخر لي في كل زمان ومكان.

وأقنعت نفسي بوجهة نظره وسألته:

ـ متى تصل الطائرة؟

ـ في الواحدة صباحًا .

وأضاف مسرعًا :

ـ ولكن احتمالات التأخير واردة وأنت تعرفين أن شركات طيران بلدنا لا تضبط موعدًا، فلا تقلقي يا حبيبتي إذا تأخرت .

وطبع على وجنتي قبلة تليفونية ارتجفت لبرودتها أوصالي . . وحركت بداخلي شعورًا غامضًا انقبض له قلبي . . فقلت لنفسي :

ـ أعوذ بالله من الشيطان .

وقرأت المعوذتين، وحاولت النوم، ولكن هيهات أن يغمض لي جفن أو يرقد لي فكر . . قاومت وقاومت ولكن . . وفي الثالثة صباحًا انتفضت واقفة تحركني قوى أكبر مني تجاه الملهى الليلي ـ الذي تعمل به تلك الراقصة ـ وراهنت نفسي على حاستي السادسة . . قدت سيارتي وأنا في حالة انعدام الوزن، وعند باب الملهي كانت سيارته المرسيدس الأسبور تعلن بلا أدنى شك أنه بالداخل . . استكنت لحظات أفكر، قررت بعدها أن أقتحم المكان، ولكن كيف وأنا ألمح عن بعد ثورين بشريين يحرسان البوابة الرئيسية للملهى، وجاءتني فكرة قررت تنفيذها . اقتربت وفي يدي رزمة مالية تعمدت أن تكون ظاهرة لهم . . آه يالملامحهم المخيفة إنها ملامح شاطين، ولكني سأستمر في خطتي . اندفعت بقوة وجرأة وبدلال الأنثى وبدون توقف قلت :

ـ صباح الخير .

لحق بي أحدهم يستوقفني بصوت أجش :

ـ أيوه يا مدام .

ابتسمت وكانت لابتسامتي جاذبيتها الخاصة وسحرها الذي لا يقاوم .

ـ أنا سكرتيرة الحاج (وكان معروفًا بهذا اللقب في هذه الأوساط الكبريهاتية) .

وأشرت إلى السيارة المرسيدس التي تتصدر باب الملهى في غرور، وأكملت دون إعطائه فرصة للتفكير .

ـ لقد اتصل بي الحاج تليفونيًا لأحضر له حافظة نقوده التي نسيها بالمكتب حتى يمكنه دفع الحساب .

وقبل أن يأتي الرد سحبت ورقتين فئة العشرين جنيها من الزرمة المالية التي بيدي وقلت وأنا أناولهم إياها :

ـ لو سمحتم سيارتي الحمراء تلك . . لم أغلقها فأرجو العناية بها حتى أعود . . ولن أتأخر .

اندفعت إلى الداخل بكل قوتي . . شبورة من أدخنة السجائر تملأ المكان . . سحب كثيفة من دخان لا تكاد ترى كف يدك خلالها . . ضوء خافت قاتم . . مقاعد مملوءة بالسكارى والشبه عاريات، على (البست) مجموعة أخرى تتلوى في تلاحم جسدي (لممارسة الرقص الجنسي) موسيقى ناعمة لا تصلح إلا لحجرات النوم . . ضحكات هستيرية هنا وهناك . . عالم من البشر اللا معقول واللا مسئول .

بدأت أتفحص السكارى . . ووجدتني على بعد أستشعر وجوده جذبتني تجاهه سنوات طويلة من الحب الكبير والكفاح المرير والصبر الجميل .

على بعد خطوات من البنوار الكامن به محتضنًا تلك الراقصة قبيحة الشكل ـ أو هكذا رأيتها ـ ازداد قربي ولكنه لم يشعر بوجودي ـ فهم في حالة من اللاوعي كباقي رواد المكان الموبوء .

هزته من كتفه بعنف فانتفض واقفًا . . تاركًا رأسها المستكين يسقط من فوق كتفه . . نظر إليّ بذهول وألجمت المفاجأة لسانه . . فلم ينطق . . رفعت هي نظرها نحوي وهمت أن تتكلم وكنت أسرع منها في الكلام . . قلت :

ـ حذاري أن تنطقي . . فهذه مهنتك تمارسينها مع الساقطين والعاهرين من أمثاله وأمثالك وتأخذي أجرك في النهاية . أما هو هذا الحاج ـ الذي يصلي فروض ربه ـ فلا يحق له بعثرة رصيد أبنائه وكفاح سنين عمري وشبابي على مثيلاتك من الساقطات .

أسرعت خطاي إلى الخارج حيث سيارتي وهرول هو ورائي متمتمًا بكلمات وأعذار واهية حتى صرت داخل سيارتي . نظرت له قائلة :

ـ إصرارك على خداعي وخيانتي يجعلاني أكثر إصراراً على طلاقي منك .

اقترب من نافذة السيارة والعرق يتصبب منه وقال :

ـ لي سؤال عندك أريد منك إجابة صادقة وما عهدي بك دائمًا إلا صادقة . . وبانكسار وخجل قال : من وشى بي عندك ودلك على مكاني؟

نظرت له وكأني أراه لأول مرة وقلت :

ـ دلني على مكانك قلبي الذي أحبك بإخلاص . . . إحساسي الذي لا يكذب . . . رائحة خيانتك التي ملأت جدران حياتي . . .

وانفصلنا . . . وعشت حياتي مع أولادي . . لم أبح لأحد بسر طلاقي وكانت كلمة واحدة أرد بها على من يسألني :

ـ إنه النصيب .

أفقت من غيبوتي الواعية على صوت (فت فت) تلهث ورائي على شاطئ البحر صائحة :

ـ هيه . . أنت يا صاحبة الحاسة السادسة انتظري . .

اقتربت مني وهي تنهج وتقول :

ـ إذا كان للخيانة رائحة . . فما بال المزكوم الذي لا يشم؟

سحبتها من يدها إلى حجرتنا بالفندق وأنا أقول لها :

ـ احمدي الله على زكامك وعيشس حياتك كما عشتها في سنواتك الماضية فالوقت متأخر وليس مناسبًا لعلاج زكامك .

عند باب الحجرة كنت قد تجاوزتها بخطوة جذبتني بشدة وقالت لي بخفة دمها المعهودة :

ـ على جثتي . . لن تدخلي قبلي .

وسبقتني مقهقهة راضية وسعيدة لكل أنواع الزكام في أنفها .